الفراغ في الأدب والفن

عمار علي حسن

(١) https://www.elwatannews.com/news/details/8123833

٢٠٢٥/٨/٣٠

https://www.elwatannews.com/news/details/8123833

تتجاور وتتفاعل عناصر عدة تشكل الخطاب الأدبى، وهي ليست بالضرورة عناصر موجودة كتابياً أو حتى شفاهياً، بشكل ظاهر، لكنها قد تكون مضمرة أو غائبة، تمثلها المساحات البيضاء، والمواقف الصامتة، التى تسهم بطريقة خلاقة في استكناه معنى الشعر وشكله عبر التأويل، وبذا يكون هذا الفراغ ناطقاً حين يسود الصمت، وهو إن كان لا يتكلم، فإنه يوحى بالكلام، ليفجر في ذهن القارئ أو المتلقي تخييلاً، ليس من صنع الشاعر، بقدر ما هو ابن النص المقروء، وهنا يصبح القارئ نصاً جديداً حياً، بينما يكون منتج النص قد انتهى دوره أو مات بالمعنى الدلالي.

لا يقتصر الأمر على مثل هذه الفراغات الدلالية التي تأتي بمعنى المضمر والمسكوت عنه، بل يمتد إلى الفراغات الموجودة في الأشكال الطباعية للمنتج المكتوب كالفصول والأجزاء والفقرات والوحدات الكتابية الأخرى، وهى تمثل غالباً كتلاً تدل على المعنى في الوحدة المنفصلة، فالمسافات الموجودة في الصفحات تمثل حدود الكلمات والترويسات الرئيسية والثانوية والهوامش والفقرات والمقاطع المتتالية، وهي تسهم في مساعدة البصر على الاستيعاب أثناء القراءة.

وفي الشعر، لاسيما فيما تسمى القصيدة الكونكريتية أو الكتلية، يكون للمسافات الفارغة دور دلالي أيضاً، وليست هى فقط مسألة شكلية يتطلبها الإخراج الطباعي، إذ إن الفراغات التى تحل بين أجزاء النص وكلماته ومقاطعه تنهض بمهمة أكثر تعقيداً، وهى خلق تتابع صوتي، وتصنع وحدات أكثر دقة في بناء المعنى، وهى مسألة لم تظهر إلا مع انتشار تقنيات التواصل الحديثة التى تسيدها الحاسوب.

(٢) https://www.elwatannews.com/news/details/8124567

٢٠٢٥ / ٨/٣١

https://www.elwatannews.com/news/details/8124567

يظل الفراغ من القضايا التى ألهمت الشعراء، فأتى بعضهم على ذكره، وقام بتوصيفه وربطه بظواهر حياتية أخرى. فالشاعر الفلسطينى محمود درويش (١٩٤١ - ٢٠٠٨م) يحدثنا عن «فراغ فسيح»، ثم يعدد من المواقف والحالات والمظاهر والصور والتفاعلات بين الطبيعة والإنسان بما يصور هذا الفراغ، فتدل عليه، كما فى قصيدة له، أشياء كثيرة، مثل: الأفق المُهمَل، والزيتونة اليابسة، وغيضان الماء، والصحراء المقفرة، وجفاف العشب، وافتقاد العمل للحب، وقرب قدوم البرابرة.

وهنا يقول درويش:

«فراغ فسيح. نحاس. عصافير حنطيَّة
اللون. صفصافةٌ. كَسَلٌ. أُفُقٌ مُهْمَلٌ
كالحكايا الكبيرة. أرضٌ مجعَّدة الوجه.
صَيْفٌ كثير التثاؤب كالكلب فى ظلِّ
زيتونةٍ يابسٍ. عَرَقٌ فى الحجارة.
شمسٌ عمودية. لا حياةٌ ولا موت
حول المكان. جفافٌ كرائحة الضوء فى
القمح. لا ماءَ فى البئر والقلب.
لا حُبّ فى عمل الحُبّ... كالواجب الوطنيّ
هو الحُبُّ. صحراءُ غير سياحيِّة، غير
مرئيِّة خلف هذا الجفاف. جفافٌ
كحرية السجناء بتنظيف أعلامهم من
بُراز الطيور، جفافٌ كحقّ النساء
بطاعة أزواجهنّ وهجر المضاجع. لا
عشب أخضر، لا عشب أصفر. لا
لون فى مَرَض اللون. كُلُّ الجهات
رماديٌّة
لا انتظار إذاً
للبرابرة القادمين إلينا
غداة احتفالاتنا بالوطنْ»!

ونظر الشاعر السورى المقيم فى باريس أحمد على سعيد إسبر، المشهور بأدونيس، إلى «الفراغ»، الذى جعله عنوان إحدى قصائد ديوانه «أوراق فى الريح»، على أنه الجدب والخراب، وبدا فى هذا أشبه بما كان عليه الشاعر الإنجليزى تى. إس. إليوت فى قصيدة «الأرض اليباب»، فالفراغ لدى أدونيس صار معضلة وجودية وتحدياً كبيراً، تهدد نفسية الشاعر، وتزلزل كيان أمته. وهو جدب لم يتجاوزه الشاعر إلى الإخصاب، إلا بالأمنيات.

وتبدأ القصيدة بمشهد كابوسى، يقول:

«حطام الفراغ على جبهتى
يمد المدى ويهيل الترابا

يغلغل فى خطواتى ظلاماً

ويمتد فى ناظرى سرابا».

ويستمر المشهد نفسه، بل يزداد ضراوة، حين ينتقل الأسى من حول الشاعر أو ما يراه فى محيطه إلى داخله هو، حيث يقول:

«حطام الفراغ يُغيب نجمى، يُجمد أرضى

ويترك بعضى كهوفاً لبعضى،

ويجعلنا كالفراغ.

حطام الفراغ».

وينطلق الشاعر من الذات إلى السياق، ومن الخاص إلى العام، فيرى أن الفراغ يحط فى كل شىء، ويكشف «خيبة أمل جيل لم يعد يحصد سوى الإخفاق، ولا يُسمع منه حتى رجع الصدى» فتظل المحنة قائمة.

«فراغٌ زمان بلادى فراغ

وتلك المقاهى

وتلك الملاهى

فراغ

وهذا الذى ذُلَّ فى أرضه وأنكرها واستكانا

ولوَّث أنهارنا ورُبانا

فراغ

وذاك الذى مَلَّ من شعبه

ومن حبِّه

وغمَّس باليأس أعماقهُ وأحداقهُ،

فراغٌ

وذاك الذى لا يرى غيرَهُ

ولا يجد الخير خيراً، إذا لم يكن خيرَهُ،

فراغٌ فراغ.

فراغٌ يعشِّش فيه الدمارُ

ويسكنه الفاتحون التُّتار».

(٣) https://www.elwatannews.com/news/details/8125414

٢٠٢٥/٩/١

https://www.elwatannews.com/news/details/8125414

أمام الفراغ لا يجد أدونيس فى إحدى قصائد ديوانه «أوراق فى الريح» وسيلة لحدوث الامتلاء سوى بالتمرد على هذه الحال المقبضة، المفعمة بالهواجس السوداء، فيضع الثورة مقابل الفراغ، ليذهب معها القحط والجهل والخوف. وهنا يقول:

«فراغٌ فراغٌ.. ألا ثورة/ تشيد لنا بيتنا

وتُجرى معاصرُها زيتَنا/ وتملأ بالحاصدين الحقولا

وتملأ بالخلْق، بالثورة العقولا».

أما الشاعر الأردنى هزاع البرارى، فيأخذ الفراغ عنده معنى مادياً، فنجده يمضى بصحبة الشاعر، بل هو الشيء الوحيد الذى يحمله معه، وهو الشىء الذى بوسعه أن يجرح الروح، كأنه نصل سكين حاد، وهو ما تعبر عنه قصيدته «تجاعيد الفراغ»، التى يقول فيها:

«على مفترق القلب أقف/ أوزع عليكم فتات العمر

وأمضى

لا شىء معى غير الفراغ

كموج بحر/ تصافحنى الحياة على عجل

وبصخب تتركنى على ذمة قارئة فنجان

لست منى.. أنا

كأن روحى ذئبة يجرحها الفراغ

كأن ملامحها تتناسخ فى مسامى

فلا أنا أشبهها ولا عدت أشبهنى».

ويضرب الشاعر الفلسطينى حسين البرغوثى مثلاً ناصعاً على الدور الجوهرى الذى يلعبه الفراغ فى حياتنا، حين يقول:

«الفراغ الذى فى داخل الناى، من غيره لا تقدرون على الغنا. أينه؟ أينكم؟ إن هندستى أن أصمم نفسى، وصمتى غناى».

أما الشاعر التونسى غازى لغمارى، فيفرد له قصيدة، ويتغزل فى محبته، ويرى أنه الأصل، وهو الامتلاء الحقيقى، حيث يقول:

«كم أحبك أيّها الفارغ

وكم أعشق الرقص والركض فيك!

أحمق من يعتقد أنك عديم الأهمية

فأنت الحياة، وأنت الممات

وكل الحب الغارق فى الامتلاء».

وانشغال الشعراء بالفراغ يبدو أمراً طبيعياً، فهو الفضاء المفتوح الذى يجذب أنظارهم دوماً، وهو الخلاء الذى تتوالد فيه الأسئلة بلا هوادة حول ماهيته، وما فيه، وما يكون وراءه، وكيف يمكن ملؤه؟ ومحاولة الإجابة عن هذه التساؤلات تلهب الخيال وتشحذه. والفراغ هو اللامفكر فيه من قبل المتعجلين والماديين والغارقين فى تفاصيل الحياة، بينما هو العكس عند المبدعين وأصحاب التفكير الجانبى والإبداعى، الذين لا يكفيهم ما يطارد أسماعهم وأبصارهم من أشياء مادية موجودة، بل يبحثون عن الغائب والمعدوم والخالى، أو ما يتصور الناس أنه كذلك.

ولا تقل خبرة الرسام بخصوص الفراغ عن تأملات الشاعر حوله، بل يكمل كل منهما الآخر، فالفكرة التى تحل برأس الثانى يمكن للأول أن يترجمها إلى لوحة أو تمثال، فيضع الفراغ فى اختبار واقعى، يعزز البرهان الذى يؤمن بأن عالم الأشياء يحيط به الفراغ ويتخلله، ويكمل صورته ومعناه.

ويتجلى الفراغ فى أى عمل فنى تشكيلى، مهما كان منبعه الحضارى، وهذا أمر لا يمكن تصور نقيضه، إذ إن الفراغ يمنح مواطن جمال عدة، سواء فى التصميم، أو توزيع العناصر فى الإطار الثابت للعمل الفنى، والنظر إليه، وتقدير دوره، يحدد جانباً مهماً من تقييم هذا العمل وتقدير مستواه.

وإذا أخذنا الفنون الإسلامية مثلاً فى هذا المقام، فنجد أنها قد عرفت الفراغ فى جميع فروعها الرئيسية مثل العمارة والخط والزخرفة والتصوير وغيرها، والفرعية مثل المعادن والزجاج والقماش والمسكوكات والمخطوطات والتحف، وهى قد عبأته بالنور والحركة، عبر الزخارف والنقوش الكتابية والهندسية بكل ما فيها من حركة بصرية دائبة، فلا تترك للناظر إليها مجالاً للثبات والسكون، أو من خلال تسليط النور والإضاءة الشديدة على الفراغات المعمارية، سواء كان مصدرها داخلياً أو خارجياً، ومن مختلف الأرجاء بما يكفل عدم حضور تضادات الظل والنور فيها، فيتلاشى الفراغ المشبع بالنور فى عين الناظر، ويكسبه فى الوقت نفسه، إشباعاً بصرياً مفعماً بالحيوية والحركة، بل ينشغل الرائى بالإشباع الروحى الذى يمنحه الشكل والصورة، وليس بالفراغ.